مكان ومكان، سلوكهم مفلوت العنان، لا يُكبح له جماح، خلقهم لا يفرّق بين المقبول والمرذول. فلا قيم ولا مثل، لا تأثمّ عن إثم، لا رعاية لإلّ[640]. كلّ حرام حلّ، وكلّ متاع مباح. ولم يكن شيء أوجع لفاطمة، وأقطع في قلبها، من رؤية سادة قومها يرمون أباها بكلّ دنيّة ونقيصة وعاب[641] يعلمون أنّه منها نقيّ بُراء، وإن هي إلاّ ولائد عقول مأفوكة تخلّفت من سفاح بين الضغينة والبهتان. ولم يكن شيء أقدر على إثارة عجبها وغضبها من تنافس ذويّ قرابته الأدنين في النيل منه، والاجتراء عليه كما لم ينل ولا اجترأ الغرباء البُعَداء. فبقدر ما قربوا بقدر ما شنأوا، وبقدر ما شنأوا بقدر ما أسرفوا في الإيذاء. ولا دهش أكثر من دهشها لابن عمّه: أبي سفيان بن الحارث، تربه ورفيق أيام صباه، الذي كان أشبه به خلقةً، وآنس صحبةً، وأصدق مودّةً، حتّى لحسب أنّه توأمه فإذا هو بعد تنزّل الرسالة كأنّه غيره جيء به من عالم مجهول! لقد انقلب عليه أيّ منقلب! تنكّر لصلة القرابة، جحد حقّه، أهدر إلف الرُفقة، مضى في جوار إبليس يعينه على ابن عمه، فيقذع له[642]، ويقدح فيه وإن كان ليعلم في قرارة ضميره أنّ كلّ الذي يرميه به من عيب كذب ومن طعن افتراء. * * * ودع الرجل وما هو فيه من خسران يؤمّ المحافل، ويرود الأندية، ويجول في الأسواق، يهجو محمداً بشعر كريه، منكر الجرس كعواء مسعور، خبيث الريح كقيء مخمور.